الرواية البوليسية وأدب الخيال الإجرامي

انتشرت كتابة الروايات البوليسية في العالم كله، وارتبطت بظاهرة خاصة. هي رجال التحري الذين يعملون بصورة مستقلة عن الشرطة ويتعاون مع رجالها أحياناً، وأصبحت شخصيات كثيرين من رجال التحري ذات شهرة عالمية.

ويقبل القراء بنهم على قراءة قصص الجرائم لما تتضمنه من الغاز وإثارة. لكن الرواية البوليسية لا تختلف كثيراً عن قصص الجرائم في كونها تضم ما هو أكثر وأعمق من اللغز والإثارة. فهي ترسم صورة لثقافة المجتمع، وتحلل العلاقة بين طبقاته، وتطرح على قارئها تساؤلات مهمة حول المثل والأخلاقيات والطبيعة الإنسانية.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وضع بعض الكتاب الرموز أو (الشيفرات) الرئيسية للقصة المبنية على الألغاز، وانطلقت موجة الرواية المثيرة التي استمد منها الأمريكيون بذور ما سوف يطلقون عليه اسم (الرواية السوداء) ابتداء من العام 1930، أما في فرنسا، فغلبت الرواية البوليسية وبدا في الواجهة الكاتب جورج سيمونون الذي اعتبر معلماً في (البولار) أو الرواية البوليسية.

وهناك من ينسب نشوء القصة البوليسية في الغرب إلى الكاتب الفرنسي فولتير (1694 – 1747)، واسمه الحقيقي فرانسوا ماري أروبه، في روايته (زاديج)، التي صدرت سنة 1747. ويظن بعض النقاد أن قصة الكلب والحصان في الفصل الثالث من روايته هذه، تُعد من الأدب البوليسي الباكر. وفي الرواية محاولة حقيقية لتحليل جريمة ودوافعها. أما القصة الجنائية الدنماركية (عميد فايلباي) التي ألفها ستين ستينسن بلتشر (1782 – 1848)، فصدرت سنة 1829. ثم تلتها رواية جنائية نرويجية، هي (اغتيال صانع المحركات رولفسن)، للأديب موريتس هانسن (1794 – 1842)، سنة 1839. لكن كل هذه القصص لا تُسمَّى (بوليسية) بالمعنى المعروف اليوم.

وفي شكل أو في آخر، تعتبر الرواية البوليسية مرتبطة بالقرن العشرين، لا سيما بالثلاثي الذي ستأتي السينما لتعزيزه في أفلام انتمت إلى بلدان عدة طوال هذا القرن: المدينة، المرأة والجريمة.

انتشرت الرواية البوليسية طوال القرن الفائت أكثر من أي أدب آخر، واجتذب كتاباً معظمهم تخصص فيها، وكان رائدهم الأول في معظم الأحيان هو التعبير عن عقلانية معينة تقف وراء الحلول النهائية للألغاز، ما يعطي العقل سلطته المطلقة على المجرم. نجد هذا في مغامرات شرلوك هولمز وأبطال أغاثا كريستي، كما نجده في الرواية الأمريكية.

في خضم هذا كله يبدو انتماء حقبة ازدهار الرواية البوليسية إلى الزمن الحديث أمراً لا مراء فيه، ومع ذلك ثمة من يعيد ولادة عصرها الذهبي إلى القرن التاسع عشر، ويذكر أسماء فيكتور هوغو، وأونوريه دي بلزاك ولا سيما دوستويفسكي، كأدباء مرشحين لتوليد هذا الأدب. ويبدو هذا الأمر ممكناً من خلال القول أن ثمة عناصر من الألغاز والتحقيقات البوليسية في أدب هؤلاء – أو بعضه –، أما الأب الحقيقي والشرعي للقصة البوليسية الخالصة فهو – في هذا، الإطار – إدغار آلان بو، الذي أسس الأدب البوليسي، القائم على لغز إجرامي يتعين حله، وهو الذي ينسب إليه المؤرخون إنشاء هذا النوع في الآداب بروايته (جرائم شارع مورج) 1841 وهي رواية يظهر فيها أوغست دوبان، المحقق الجنائي اللامع والغريب الأطوار الذي يستخدم المنطق في حلّ الألغاز، وبهذه الرواية وكذلك رواية (سر ماري روجيه) سنة 1843، ورواية (الرسالة المسروقة) سنة 1844.

سنّ آلان بو، دُون عونٍ من أحد، السُّنّة الأدبيّة للقصص البوليسيّة الخياليّة. ومع هذا فإن آلان بو، الذي كانت اهتماماته بالأدب «الخالص» والشعر، تفوق اهتماماته البوليسية، لم يكن سوى الممهد لكتاب لن يكون من الظلم أن ننسب إليهم، تأسيساً حقيقياً لهذا الأدب. لكن نشاهد أن إدغار آلان بو قد تأثر بقصة ألمانية عنوانها (الآنسة فون سكوديري)، التي كتبها إي. تي. إيه. هوفمان (1776 – 1822) سنة 1819، وهي قصة تنتهي بثبوت براءة المشتبه به المفضّل لدى الشرطة الجنائية، في قضية قتل صائغ خلال قصته (جرائم شارع مورج).

فقد أسس آلان بو أصولاً للعقدة القصصية في الرواية البوليسية لا تزال معتمدة إلى الآن. وتوالت قصصه التي يتولى التحقيق في جرائمها أوغست دوبان، ومنها: (سر ماري روجيه) سنة 1843، ثم (الرسالة المختلَسة) سنة 1844.

أسس آلان بو روايته البوليسية على أن الغرض هو معرفة الحقيقة، وأن بلوغ هذا الغرض يقتضي مساراً شديد التعقيد، وعملاً سرياً، يجمع الحدس القوي إلى التحليل المنطقي والمراقبة الذكية والاستنتاج النفّاذ. وقد أجمعت الروايات البوليسية الأولى في ذلك العصر على أن تكون القصة من أولها إلى آخرها، متابعة مسيرة المحقق، بطل القصة الأوحد، في اقترابه من حل اللغز الجنائي. ويرى النقّاد أن آلان بو ابتعد عن الخيال في هذه الرواية لأنها مؤسسة على حادثة حقيقية حدثت لامرأة اسمها ماري سيسيليا روجرز.

وفي طليعة هؤلاء الأدباء المرشحين لتوليد هذا النوع من الأدب غابوريو الفرنسي، ولكن بخاصة ويلكي كولنز البريطاني (1824 – 1889)، الذي فيما كان يكتب رواياته الأولى متأثراً بصديقه تشارلز ديكنز وبالأخوات برونتي في آن معاً، لم يكن يعرف طبعاً أنه في طريقه ليصنع الأسس، لذلك المزج الخلاق بين «البوليسي» و«الميلودرامي»، في نوع نال حظوة كبيرة لدى القراء ولا يزال، وأحبته السينما كثيراً، حتى وإن كان كولنز نفسه تم تجاوزه لاحقاً. ولأن النوع الذي أسسه سرعان ما اقتفى آثاره فيه، عشرات الكتاب، ولا سيما

في العالم الأنغلو – ساكسوني، ما خلق زحاماً نُسي المؤسس في خضمه.

وتنتمي عدة روايات لويلكي كولنز إلى النوع نفسه، ومعظمها نشر في شكل قصص مسلسلة في مجلة (غراهام) التي كان يحررها تشارلز ديكنز «الذي تحمل روايات عدة له، هو الآخر، السمات نفسها وإن كان من مواقع أكثر اجتماعية»... بيد أن (السيدة ذات الرداء الأبيض) تظل الأشهر بين أعماله، وإن كانت رواية أخرى له هي (حجر القمر) 1868 فكانت من أهم الروايات البوليسية الأولى، التي اعتبرها تي. اس. إليوت «أجمل رواية بوليسية، إذ إننا نجد فيها كل ما هو جيد وفاعل في هذا النوع من الأدب».

ويُعد ولكي كولينز مؤسس أدب الرواية البوليسية الخيالية الإنجليزية، ومن اللافت أن يكون دارسو حياة كولنز رووا أنه، خلال مرحلة صداقته الحميمة مع تشارلز ديكنز، كان الاثنان اعتادا التوجه مراراً وتكراراً إلى باريس، كلما سئما لندن، حيث يتجولان بين الحانات، ولكن أيضاً بين المكتبات، ويصغيان إلى ما يروى لهما. ويبدو أن الاثنين كانا يدونان أشياء كثيرة مما يروى، بل إن الكاتبين الانكليزيين كان من هوايتهما أيضاً جمع كل ما له علاقة بالمحاكمات الشهيرة والقضايا الجنائية التي عرفت في فرنسا. ويبدو أن كولنز استوحى (السيدة ذات الرداء الأبيض)، من واحدة من تلك القضايا، وإن كان المناخ إنكليزياً خالصاً. أما الإضافات الأساسية التي جاء بها كولنز في هذا الإطار، جاعلاً منها الأساس الذي سيبنى عليه نوع بأسره من الأدب، فهو، في الشكل، وأيضاً في المضمون حيث كان هو من أول كتاب النوع الذين يخلقون تواطؤاً مع قارئهم منذ الصفحات الأولى... ذلك أن كولنز أوصل إلى قارئه، منذ تلك الصفحات كل المؤشرات الضرورية للوصول به إلى حل اللغز... كما أنه كان من أوائل الذين جعلوا الذنب الحقيقي – الذي ستتكشف هويته في النهاية، واحداً من الذين يشتبه القارئ بهم أقل من غيرهم...

وقد أكد كولينز في مقال نشر له عام 1858 بعنوان الجمهور المجهول قائلاً: «يوجد جيل جديد من القراء أرادوا قراءة الكتب التي تعكس تغيير منزلتهم في المجتمع». وقد ساهم ارتفاع معدلات معرفة القراءة والكتابة إلى زيادة شعبية الروايات البوليسية.

وفي (السيدة ذات الرداء الأبيض)، تبدأ الأحداث بأستاذ رسم يدعى والتر هارترايت يلتقي في شارع عتم بسيدة من الواضح أنها مجنونة مرتدية ثياباً بيضاء... ويلاحظ على الفور أنها تشبه واحدة من تلميذاته هي الحسناء لاورا فيرلي، التي يهيم بها حباً. صحيح أن لاورا تبادله حبه، لكن أباها يرفض زواجهما لأنه كان وعد بها السير برسيفال غلايد، ما دفع هارترايت إلى السفر وقد استبد به اليأس. في أثناء ذلك يقترن السير برسيفال بلاورا، التي سرعان ما ستكتشف أن الرجل لم يتزوجها إلا طمعاً في ميراثها، فترفض أن تتنازل له عن شيء، ما يجعله، بمساعدة الكونت الإيطالي، شريكه، فوسكو، يتوصل إلى وضعها في مصح للأمراض العقلية مكان سيدة تعرف بـ(ذات الرداء الأبيض) ماتت لتوها... ويتمكن برسيفال وفوسكو من دفن هذه الأخيرة تحت اسم ليدي غلايد، ما يعني أن برسيفال بات الآن قادراً، إذ «ماتت» زوجته على الحصول على الميراث. بيد أن ماريا هالكومب، نسيبة لاورا، تدرك ما حصل، وتتدخل في الأمر حيث تتمكن من تسهيل فرار الزوجة الشابة من المأوى. وإذ يكون مدرس الرسم هارترايت عاد كان في تلك الأثناء، تلتجئ إليه المرأتان، فيقرر وضعهما تحت حمايته وإنقاذهما من براثن برسيفال وخطته الجهنمية وشريكه الإيطالي. ويتمكن بالتالي من فضح ما حدث... فلا يكون من أمر الكونت فوسكو إلا أن يعترف، ما يمكن لاورا من استعادة هويتها وميراثها ومكانتها الطبيعية. أما زوجها المجرم برسيفال غلايد، فإن نهايته ستكون أسوأ من نهاية شريكه فوسكو، ذلك أنه سيحترق فيما يحاول إحراق وثائق الأبرشية لكي يتابع خطته ولكن في اتجاه آخر هذه المرة. وعلى هذا النحو، يصبح في إمكان لاورا، حتى أن تستعيد حبها القديم لهارترايت، فيتزوجان في الوقت الذي ينتهي الأمر أيضاً بفوسكو لأن يقتل على يد عميل لجمعية سرية ايطالية، كان فوسكو عضواً فيها كما يبدو وغدر بها. وهكذا، يقول لنا كولنز: إذا كنت خائناً مرة في حياتك فأنت ستبقى خائناً إلى الأبد... وفي المقابل إذا كنت طيباً مرة فأنت طيب دائماً.

لعبة (الأسود والأبيض) هذه تشكل قاسماً مشتركاً بين العدد الأكبر من أعمال الأدب البوليسي، وإن كانت ميلودرامية كولنز هنا تبدو صارخة، تجعل روايته تُقرأ مثلما كانت تُقرأ روايات شارلوت وإميلي برونتي، «الميتة بعتمة الليل» و«حكايات الأزواج القساة» و«النساء المخبوءات لسبب من الأسباب» و«الغراميات التي تفشل على مذبح يوميات الحياة» و«قسوتها، لتستعيد قوتها في نهاية الأمر».

عاش ويلكي ويليام كولنز بين 1824 و1889. وهو بدأ حياته الأدبية بكتابة الروايات التاريخية التي كانت (أنطونينا) من أولها في العام 1850، أي العام الذي ارتبط فيه بصداقة مع تشارلز ديكنز وأصبح معاوناً له، في عمله الصحافي... وكان من الواضح تأثر كولنز بأسلوب ديكنز، في العدد الأكبر من رواياته التي ظل يكتبها حتى نهاية حياته، وأتت في معظمها روايات مغامرات وميلودرامية وبوليسية ومن أشهرها (بلا اسم) و(آرما دال)... وهو إلى هذا خاض النقد السياسي في صفوف النزعة الاشتراكية الليبيرالية إلى جانب ديكنز نفسه.

وقد ساهم تشارلز ديكنز (1812 – 1870) باكراً حين كتب روايته (البيت المنعزل)، سنة 1853، وهي قصة محام متواطئ قُتل في مكتبه في ساعة متأخرة من الليل. وقد ظهر عدد من الأشخاص متخفّين على الدرج المؤدي إلى مكتب المحامي المقتول في تلك الليلة، وكان على المحقق أن يفك ألغاز الجريمة لمعرفة مَن من هؤلاء هو القاتل.

ويُعد بإجماع النُّقّاد أعظم الروائيين الإنكليز في العصر الفيكتوري، ولا يزال كثيرٌ من أعماله يحتفظ بشعبيّته حتى اليوم.

وظهر شرلوك هولمز ورفيقه الدكتور جون واطسون عام 1887 في رواية السّير آرثر كونان دويل التي عنوانها دراسة قرمزية. وهولمز أشهر الشخصيات في القصص الخيالية البوليسية وكانت السنوات الأولى من القرن العشرين فترة إثارة وأَصالة في القصص الخيالي البوليسي.

ابتكر الكاتب الأمريكي جاك فوتريل (1875 – 1912) شخصية اسمها الآلة المفكرة، كما أدخلت البارونة أوركزي المجرية المولد شخصيّة (العجوز الذي في الزّاوية). وقد شهدت الفترة بين عامي 1925 – 1935 نشر أول المؤلّفات المهمة لكتّاب القصص البوليسية مثل مارجري ألينغهام، ونيقولاس بليك، وجون دكسون كار، والسيدة أغاثا كريستي، وإيرل ستانلي جاردنر، وداشييل هاميت، ومايكل إنس، وفي عشرينيات القرن العشرين أدخلت مجلة (القناع الأسود) طراز أمريكياً واضحاً من الألغاز، كثيراً ما يسمي الشرطي السري الخاص، أو الألغاز (الواقعيّة). وتمحورت هذه القصص حول شرطي سري بطل شديد المراس، والإجراءات المشوقة والعنف والأسلوب القصصي النابض بالحياة. وتَزَعَم هذه الحركة داشييل هاميت في العشرينيات وتبعه ريموند تشاندلر بعد عقد من الزّمان. وما زال هذا الأُسلوب يلقى رواجاً واسعاً هذه الأيام.

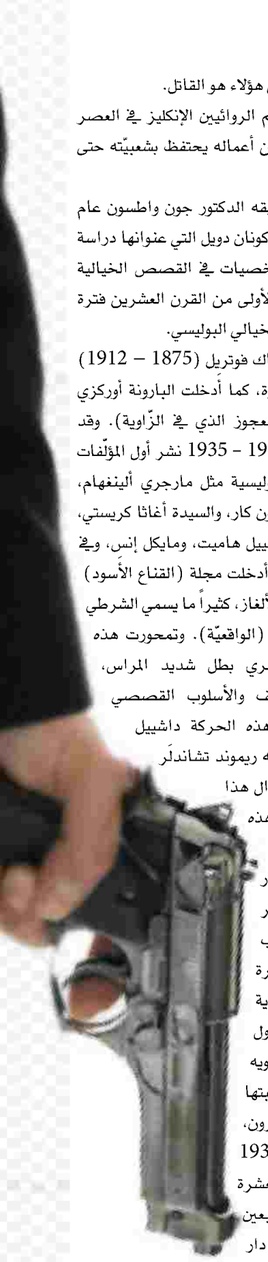

وخلال مرحلة ازدهار الرواية البوليسية ابتكر الناشر البريطاني إلان لين صاحب دار بنقوين بوكس للنشر فكرة تساعد على انتشار الرواية البوليسية وتجعلها في متناول الجميع، فقد امتلك مع أخويه حقوق نشر الروايات التي كتبتها الروائية دورثي سيارس وآخرون، وبدئ تنفيذ الفكرة في عام 1935 بأغلفة من الورق المقوى لعشرة كتب، وبسرعة وصلت إلى سبعين كتاباً خلال عام، ومن خلال دار نشر بنقوين بوكس التي اتخذت البطريق شعاراً لها أصبحت الروايات سهلة الوصول للقراء بسب سعرها المخفض، ووجودها في المكتبات، ومراكز التسوق والقطارات، وقد ساهمت مبادرة إلين في انتشار الروايات البوليسية بشكل سريع.

وقد أكد عدد من النقاد أن الرواية البوليسية ازدهرت بعد

الحرب العالمية الثانية وتوقعوا أن السبب يتمثل في أن الناس أرادوا أن يثأروا من الجرائم التي ارتكبت في الحرب ضد الإنسانية ويشبعوا شغفهم الإنساني برؤية عقاب الجاني.

الرواية البوليسية الأمريكية:

وصلت الرواية البوليسية الأمريكية ذروة ازدهارها في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر فمن خلال شهرة إليري كوين الاسم المستعار لأبناء العم مان فرد بي لي وفريدرك داني اللذين أنتج تعاونهما الأول رواية (لغز القبعة الرومانية)، التي نشرت عام 1929، وأظهرت البطل وهو مخبر سري هاوٍ حل الألغاز مع والده ريتشارد كوين إليري، فحقق شعبية لدى القراء، وقد ألف إليري كوين ثلاثة وثلاثين رواية بوليسية على مدى 40 سنة أظهرت الأب والابن كفريق بحث سري. بعد ذلك ابتكر فرد وفريدرك شخصية مخبر سري أخرى نالت لدى القراء شعبية هي دراري لين، قدمت في عام 1923.

ظهر في تلك المدة نوع آخر من الرواية البوليسية، رواية (القناع الأسود) التي ظهرت مع تزايد عدد المجلات التي عرفت بدايتها بنشر قصص المغامرات، وبعد ذلك خصصت صفحاتها للرواية البوليسية، وأصبحت تلك المجلات نموذجاً للكتابة البوليسية.

أسست رواية القناع الأسود اتجاهاً ثورياً للقصة البوليسية الكلاسيكية، وكانت محاولة لابتكار نوع جديد في الرواية البوليسية الذي يعكس الحياة الواقعية في أمريكا في ذلك الوقت وظهر ذلك في شخصياتها.

الرواية البوليسية في ألمانيا:

ما أن تذكر الرواية البوليسية في ألمانيا إلا ويذكر معها فريدريك شيللر وهوفمان اللذان كتبا أولى الروايات الألمانية.

بعد ذلك تطورت الرواية البوليسية من خلال تواصل كتاب ألمانيا مع كتاب من السويد، وقدمت نفسها مناهضةً للأوضاع الفاشية السائدة، وركزت على القيم الاجتماعية، واحترام الأقليات. وقد استغرقت الرواية أربعة عقود لتحقق النجاح.

وفي العصر الحاضر حققت الرواية البوليسية الألمانية نجاحاً في المشهد الثقافي الأوروبي بالرغم من اعتبار بعض الكتاب الألمان لها بأنها أدباً هزيلاً في المحيط اللغوي الألماني. وقد ترجم عدد من الروايات الألمانية إلى اللغة الإنجليزية، وقام كتاب الرواية البوليسية الألمان بتنظيم رابطات لأنفسهم لتحمل الرواية الألمانية البوليسية روحها الخاصة والتي أضافت فيه البعد الاجتماعي ووصلت إلى العالمية.

الرواية البوليسية الفرنسية:

كان الكتاب الفرنسيون من أوائل كتاب الرواية البوليسية، ومازالت الرواية البوليسية الفرنسية تجد شعبية بين الأجناس الأدبية في الأدب الفرنسي، ويفضل الفرنسيون الرواية البوليسية الغامضة والمبهمة، وقد انجذب الفرنسيون إلى الكتابة عن القضايا التي تلمس الجانب المظلم في مجتمعاتهم. فالرواية الفرنسية تميل إلى التركيز على كشف الفساد الاجتماعي، والحكومي، وقد تحمل الكتاب الفرنسيون مسؤولية شجب الشر، من خلال اهتمامهم بخلق أجواء روائية خاصة طوروا شخوصهم فيها، وابتكروا فيها اتجاهاً جديداً للأسلوب السردي أكثر من اهتمامهم بالحبكة الروائية.

تطورت الرواية الفرنسية منذ بدايتها، وصنفت مع الروايتين الأمريكية والبريطانية في نفس المستوى الإبداعي.

ويعتبر يوجيه فرانسو الشخصية الجذابة والمبهرة في تاريخ الجريمة الفرنسية، وهو مخبر الشرطة الذي أصبح فيما بعد أول رئيس في الشرطة الفرنسية، فقد كان راوية عظيم، وقد وثق قصة حياته في سيرة ذاتية. ولكن أول شخصية روائية بوليسية هو ليكو الذي ظهر في رواية الأرملة ليروج 1866 للكاتب الفرنسي إيملي قابرو الذي يعد أول كاتب فرنسي يكتب الرواية البوليسية الحديثة.

الرواية الإسكندنافية.. النمو باتجاه العالمية:

لوقت طويل لازم أدب الرواية البوليسية في الدول الإسكندنافية (النرويج، الدنمارك، السويد، فنلندا) طقوساً خاصة بها، أدت إلى قلة انتشارها عالمياً ولمدة طويلة. وقد ظهرت الرواية الإسكندنافية إلى العالمية عندما ترجمت روايات بسجوال وهولو إلى لغات العالم الرئيسة وفي مقدمتها اللغة الإنجليزية لتشعل تلك الروايات شرارة التغيير في تاريخ الرواية الإسكندنافية.

شجع نجاح سجوال وهولو وعدداً من الأدباء الإسكندنافيين فكتبوا الرواية البوليسية وأصبحوا معروفين في خارطة الأدب العالمي أمثال مانكل، فوسم، وبيتر هاكان.

أما الآن ومع تزايد عدد كتاب الرواية الإسكندنافيين الجدد المتميزين مثل لارسون ماركلند، ثيرون، كاميلا.. وآخرين؛ فقد بدأت الرواية الإسكندنافية تشق طريقها نحو العالمية، وتلفت اهتمام الكتاب في العالم الناطق باللغة الإنجليزية، وبدأت تظهر صور كتاب إسكندنافيين على مواقع الشبكة العنكبوتية والصحف الأدبية في أمريكا وبريطانيا.

وفي مقال للروائي الأمريكي ناثينل ريتش 2009 بعنوان (موجة الرواية الإسكندنافية) طرح سؤاله: لماذا أكثر الناس سلاماً في الأرض يكتبون أعظم جرائم الرعب؟ حيث ذكر في مقاله أنه رغم أن النرويج والدنمارك حصلتا على المركزين الأول والثالث في قائمة الدول الأكثر استقراراً ورفاهية وسعادة، واحتلت السويد المرتبة الثالثة عشرة، وذلك في دليل السلام العالمي؛ يستطرد ريتش في مقاله: «إننا لن نندهش عندما نرى الروايات الصينية تتحدث عن ظلم الحكم الشيوعي والروايات الأوغندية تتحدث عن الجنود الأطفال؛ ولكن الرواية البوليسية الإسكندنافية تجعلنا نتساءل لماذا تنتج هذه الدول المحبة للسلام أفضل الروايات البوليسية التي حققت أكبر معدل في المبيعات أمثال مانكل فوسم، وكيف نفسر لارسون مؤلف رواية (فتاة وشم التنين) التي حصلت على المركز الثاني في الروايات الأكثر مبيعاً في العام الماضي».

وقد أظهر ريتش في مقاله أسباب ازدهار الرواية البوليسية الإسكندنافية اليوم، حيث ذكر من ضمن الأسباب تأثر الكتاب الإسكندنافيين بالروايات الإنجليزية التي كانت منتشرة لعقود عديدة، بالإضافة إلى رغبة الكتاب في تحقيق النجاح والانتشار خارج بلدانهم في أن يصلوا إلى القارئ الأمريكي والبريطاني.

فهم يدركون أن الطريق إلى تحقيق العالمية والوصول إلى الخارج هو الرواية البوليسية التي تستهوي القارئ في أمريكا وإنجلترا. فكتب الكاتب الإسكندنافي الرواية البوليسية حتى لو لم يكن الكاتب رأى جريمة في حياته.

العصر الذهبي:

يفضل كثير من قراء الرواية البوليسية، في أدب ما سُمّي عصر الرواية البوليسية الذهبي، بين الحربين العالميتين، ألا يكون المحقق بطل الرواية شرطياً محترفاً، من السلك، بل أن يكون محققاً خاصاً أجيراً أو حتى هاوياً يهتم لسبب ما، بكشف سر الجريمة. لكنه في كل الأحوال لا بد من أن يكون موهوباً شديد الذكاء، وإن كانت بعض الروايات البوليسية السينمائية الفكاهية، أظهرت شخص المحقق الجنائي غبياً يرتكب أفدح الأخطاء، وهو يتصنّع الدهاء، مثلما ظهر المحقق كلوزو في سلسلة أفلام «الفهد الوردي» (The Pink Panther).

في هذه المرحلة، ظهرت قصص جنائية شديدة التعقيد، وكان لا بد من تحقيق يقرب من العبقرية لكشف القاتل. وتفنن كُتّاب هذا النمط، في إخفاء اسم القاتل حتى اللحظة الأخيرة، إمعاناً في التشويق. وفي ختام الرواية تظهر كل

الحقيقة، ويُكشَف أسلوب المحقق الذي اتبعه في بلوغ هذه الحقيقة.

وقد اتسم عصر الرواية البوليسية الذهبي، بنمط المحقق الهاوي، الرفيع الأدب والكياسة، الذي يدس أنفه بلباقة وبراءة مصطنعة في جرائم المجتمعات الراقية والقصور والحدائق المترفة، والأرياف الرائعة، والقرى البعيدة. لقد صارت هذه البيئة هي المفضلة في روايات كتّاب هذا النوع، حتى أضحت له دُرجة، أدمن عليها القراء، وفضّلوها.

الفارسات الأربع:

يُسمَّى عصر الرواية البوليسية الذهبي ذهبياً، لبروز أربع كاتبات لمعن بين الحربين العالميتين على الأخص، في هذا النوع من الأدب، هن: أغاثا كريستي (1890 - 1976) ودوروثي إل. سايرز (1893 - 1957) ونجايو مارش (1895 - 1982) ومارجري ألنغهام (1904 - 1966)، وجميعهن إنجليزيات عدا نجايو النيوزلندية. ويضيف بعض النقاد خامسة هي جوزفين تاي.

لكن أشهرهن وأغزرهن نتاجاً، هي بلا شك أغاثا كريستي التي كتبت سلسة روايات، كان أبطالها المحققَين الجنائيَين هركيول بوارية، ومس ماربل، وغيرهما. وتتسم رواية كريستي بالأحاجيّ التي تحيّر القارئ، وتقوده مرات كثيرة في غير طريق بلوغ الحقيقة. ومن أشهر رواياتها: «جريمة على قطار الشرق السريع» (1934)، و«موت على النيل» (1937)، و«ثم لم يعد هناك أحد» (1939).

واستخدمت تقنية الأحاجيّ المعقدة جداً في الرواية البوليسية، بطريقة فذّة في عقدة روائية تبدو مستحيلة من قِبَل الكاتب جون ديكسون كار (1906 - 1977)، وهو نفسه كارتر ديكسون، الذي يعدُّ ملك روايات ألغاز الغرف المقفلة، وسيسيل ستريت (1884 - 1965)، الذي وقّع رواياته أيضاً باسم جون رود. وقد تخصّص دكتور بريستلي، المحقق في رواياته، في استخدام الأدوات التقنية المتطوّرة.

وبرز من الأمريكيين في كتابة الرواية الجنائية ركس ستاوت (1886 - 1975) وإيليري كوين (اسم مستعار في مسلسل تلفزيوني أمريكي 1975 - 1976) وآخرون.

التحرّي الخاص:

لعل التحري مارتن هيويت، الذي كان بطل الكاتب البريطاني آرثر موريسون (1863 - 1945)، أول نماذج التحري العصري في الرواية الخيالية البوليسية.

في عشرينيّات القرن الميلادي العشرين، لم يكن آل كابوني (1895 - 1947) مصدر خوف ورعب فقط في شوارع شيكاغو وسائر المدن الأمريكية، بل كان كذلك مصدر فضول وتشوّق لدى هذا المجتمع لمعرفة خفايا عالم الجريمة أيضاً. وقد استثمرت مجلات أدب الخيال الإجرامي الأمريكية وكتّابه ذلك الفضول استثماراً ذكياً، مثل مجلة «بلاك ماسك» (القناع الأسود) والمؤلف كارول جون ديلي (1889 - 1958) الذي ألّف قصص عنف وتشويه وظلم، من عمل المجرمين. ولم يقصد ديلي أن تكون عقدة قصته لغزاً جنائياً غامضاً، بل اكتفى على الخصوص برواية حوادث عنف المجرمين، وحكم العدالة الذي يستحقّون.

وشاعت في ثلاثينيات القرن العشرين روايات التحري الخاص، مثل داشييل هاميت وجوناثان لاتيمر وإيرل ستانلي جاردنر، لفضح عالم الجريمة السفلي العنيف، في الشارع الأمريكي. وفي أواخر الثلاثينيات، طوّر ريموند تشاندلر (1888 – 1959) هذا النوع الأدبي بفضل بطله التحري فيليب مارلو، الذي أضفى صفة حميمة على عمل المحقق الجنائي. ثم دخلت شخصية مارلو في عدد من القصص التلفزيونية. وتابع جيمس هادلي تشيس (1906 - 1985) أسلوب تشاندلر في رواياته البوليسية (قداس الشقراء الجنائزي) 1945 و(إلقِ بها بين الزنابق) 1950، و(احسبه لنفسك) 1950. وزاد تطويراً في هذا الخط الذي يعتمِد التحري الخاص، الكاتب روس ماكدونالد (1915 - 1983) الذي كان بطله التحري الخاص لو آرتشر. وتميّز أسلوب ماكدونالد باستخدام علم النفس وجمال أسلوب الكتابة. ويُذكَر أن هوليوود أنتجت فلم (هاربر) سنة 1966، ولعب فيه بول نيومان دور التحري لو آرتشر، والفلم مؤسَّس على رواية ماكدونالد (الهدف المتحرك). وقد أعاد نيومان الكرّة في فلم (حوض الغرق) في سنة 1976.

ويرى النقّاد أن مايكل كولنز، واسمه الحقيقي دنيس لينذز (1924 - 2005) أدخل هذا النوع الأدبي، أي رواية التحري الخاص البوليسية، في العصر الحاضر. ففيما واظب على تلك القصص التي تجعل التحري الخاص يواجه قوى أكبر من إمكاناته بما لا يقاس، مثلما فعل سابقوه، إلا أنه أضاف عنصر التحليل الاجتماعي على الرواية الجنائية البوليسية، وأثر مكانة البشر في هذا العالم السفلي، عالم الجريمة.

الروائيات يشاركن:

حتى لينذز، كانت رواية التحري الخاص ضمن أدب الرواية البوليسية، حكراً للمؤلفين الرجال، إلى أن ظهرت روايات الأمريكيتين مارسيا مولر، وسو جرافتون، في أواخر سبعينيات القرن الميلادي العشرين وأوائل ثمانينياته. وقد أدى نجاحهما إلى إقبال الناشرين على مؤلفات القصص البوليسية من النساء.

كبوة ثم نهضة:

غير أن النصف الثاني من القرن العشرين، شهد طغيان اهتمامات هزت العالم بأسره، منها حرب فيتنام وثورة الشبيبة في الستينيات، والحرب الباردة بين الدولتين العظميين. ثم ظهور الهم البيئي الذي تبعه تطور تكنولوجي مدهش.. وكان من الطبيعي أن يفرض كل ذلك نفسه على عالم الأدب والفنون، فتراجعت مكانة الرواية البوليسية لتقبع مؤقتاً في ظل الرواية السياسية والاجتماعية. ومع ذلك، فإنها لم تنقرض تماماً. ففي ظل أدباء سياسيين أو مسيسين من أمثال ألكسندر سولجنتين مؤلف (خليج الغولاك) الشهير، كان هناك بعض الأسماء التي راحت تلمع بفضل رواياتها البوليسية، ومن أشهر هؤلاء على الإطلاق سيدني شيلدون، الذي كان عرَّاب أفضل الروايات البوليسية في العقد الأول من القرن الحالي.

ففي التسعينيات، كان مؤلف الأغاني دان براون يمضي إجازته في الكاريبي عندما طالع إحدى روايات شيلدون التي أثرت فيه بعمق إلى درجة اتخاذه قرار التحول إلى كتابة الروايات البوليسية. وبالفعل، في العام 1998، نشر دان براون روايته الأولى (الحصن الرقمي) التي أتبعها بروايتين أخريين هما (حقيقة الخديعة) و(ملائكة وشياطين) بعد ذلك (شيفرة دافينشي) و(الرمز المفقود) وأخيراً (الجحيم).

لم ينل براون نجاحاً تجارياً يستحق الذكر في بداية الأمر. إذ بلغ معدل ما بيع من كل من هذه الروايات نحو 10 آلاف نسخة. إلى أن نشر في العام 2003 روايته الشهيرة (شيفرة دافينشي) التي جعلت المجلات الأمريكية تصنفه كواحد من الشخصيات المئة الأكثر تأثيراً في العالم، بسبب الرواج الهائل الذي لقيته هذه الرواية. إذ طبع منها نحو 100 مليون نسخة، وبفضلها عادت رواياته السابقة إلى الرواج، الأمر الذي أمَّن للمؤلف دخلاً سنوياً يقدَّر بنحو 75 مليون دولار.

تندرج روايات دان براون في إطار الرواية البوليسية بالمعنى الحربي والتقليدي للكلمة. فمعظمها يبدأ بجريمة قتل غامضة، يتطلب حل لغزها عبقرية محقق مثقف (مثل روبرت لانغدون الذي كان بطل أربع من هذه الروايات)، وهو أستاذ في جامعة هارفرد وليس شرطياً عادياً. والسبب في اختيار هذا النوع من الأبطال، هو أن حل اللغز الغامض في روايات براون يجول بالقارئ على عالم المؤسسات الكبرى مثل الكنيسة الكالوثيكية ومؤسسات الأمن القومي الأمريكي والجمعيات السرية مثل الماسونية و«الإيلوميناتي»، وزمنياً، يمكن للمؤلف أن يجول بالقارئ ما بين زمن الحروب الصليبية وعصرنا الحاضر بكل ما فيه من تقنيات لا تزال مجهولة أو قيد الاختبار.. وهذا ما أضفى على رواياته نكهة خاصة لم يعهدها قرَّاء الروايات البوليسية من قبل، الأمر الذي أدى بدوره إلى تحول هذا النوع من الأدب البوليسي إلى مدرسة، بدأ الكثيرون ينسجون على منوالها.

ومن أبرز المنتمين إلى المدرسة «البراونية» هذه، الروائي السعودي الدكتور منذر القباني، الذي كتب حتى الآن روايتين بوليسيتين هما (حكومة الظل) و(عودة الغائب)، وكلتاهما تدوران حول الصراع ما بين المحافل الماسونية من جهة و(العروة الوثقى) من جهة أخرى. والعقدة، كما هي عند براون، تبدأ بجريمة قتل، والبطل شخص مثقف يجد نفسه متورطاً في التحقيق سعياً إلى حل اللغز الغامض.

الرواية البوليسية التاريخية:

وثمة فرع في الرواية البوليسية، يسمَّى الرواية البوليسية التاريخية، وفيها عادةً سر غامض هو العقدة الأساسية، ويتضمن جريمة، غالباً ما تكون اغتيالاً سياسياً، في حادثة تاريخية. وثمة نقاش يتناول عدداً من العناصر في هذا الفرع، منها: كم سنة يجب أن تمضي على الحدث قبل أن تستحق القصة الصفة التاريخية، أو: هل ينبغي أن تحتوي حقائق تاريخية، وكم من نسج الخيال يحق للمؤلف أن يضمِّن روايته لتبقى «تاريخية». وهل ينبغي أن تكون الضحية شخصاً حقيقياً من التاريخ مثل سقراط أو موتسارت، أم أن القصة التاريخية قد تتسع لرواية اغتيال شخص وهمي، لكن في بيئة زمنية واجتماعية تاريخية. وهل يكفي أن يكون التحري شخصاً تاريخياً فتحاك من حوله قصة غير حقيقية.

أول من كتب الرواية البوليسية التاريخية ملفيل دافيسون بوست (1869 - 1930)، وآنا كاترين جرين (1846 - 1935)، وإن كان جرجي زيدان اقترب في رواياته التاريخية من هذا النوع، مع أنه لم يعالج روايته من ناحية جنائية، وكان همّه وضع الحقائق التاريخية في إطار قصصي مشوّق. ثم ظهرت الأمريكية ليليان دي لاتور (1902 - 1993، واسمها الحقيقي ليليان ماكيو)، وقد تخصصت في روايات يحوط عقدتها أسرار غامضة ومثيرة.

لكن النوع كان ينتظر اسماً بدأ يلمع في 1944: أغاثا كريستي نفسها، بروايتها: «في النهاية يأتي الموت». وهي قصة بوليسية تاريخية، حدثت وقائعها في مصر القديمة، فيما تناول جون دكسون كار سنة 1950، عصر نابليون بونابرت في روايته: «عروس نيوجيت». وهي في الوقت نفسه من فرع رواية التحري عن القاتل. ثم كتبت جوزفين تاي (1896 - 1952، واسمها الحقيقي إليزابت ماكنتوش) سلسلة روايات من هذا النمط، يدخل في إحداها التحري المستشفى لكشف جريمة قتل الملك الإنجليزي رتشارد الثالث. وتوالت الأسماء منذ 1970، فكانت إليس بيترز (1913 - 1995، واسمها الحقيقي إديث ماري بارجيتر) التي أصدرت 21 قصة من يوميات الأخ كادفائيل، وتدور حوادث رواياتها البوليسية قبل ألف سنة. وموضوعها جرائم قتل تاريخية. وتعاظم الإقبال على الرواية البوليسية التاريخية في تسعينيات القرن الميلادي العشرين، بظهور روايات ليندسي ديفيس التي تدور حوادث الجرائم فيها في عهد الإمبراطور فسبازيان الروماني، ثم روايات الأمريكية إليزابت بيترز (واسمها الحقيقي بربرة ميرتس)، التي كتبت روايات بوليسية عن جرائم في مصر في عشرينيات القرن العشرين.

أنواع أخرى:

درج كذلك في الرواية البوليسية نوع يميل إلى جريمة القطارات، ففي القطار لا يعرف الناس أحدهم الآخر عادة، ويضفي هذا الأمر سمة غموض على أية جريمة تحدث على قطار. وكان أول محقق في جريمة قطار ثورب هازل، بطل رواية القس الإنجليزي فكتور وايتشرش (1868 - 1933). ثم كرّت السبحة.

وثمة روايات بوليسية أقبلت عليها كاتبات في أواخر القرن العشرين، واتسمت بمعالجة قصص الحوادث الغامضة، البعيدة عن العنف، مثل أسرار صناعة الغذاء والأسرار المهنية الأخرى والتجسُّس فيها، وغلب فيها أن يكون المحقق امرأة.

لكن روايات الكُتَّاب الرجال جنحت في دُرْجَة جديدة، إلى روايات مجرمي القتل الجماعي المتسلسل، وكأنها تثأر من النوع البوليسي النسائي «السلمي» الخالي من فظائع العنف، بهذه الجرعة من العنف في أخبثه وأفظعه. وقد بدا للكتّاب ربما، أن هذا النمط من الرواية البوليسية يفيض نوعاً ما عن طاقة الشرطة الرسمية، ولا بد له من التحري الخاص، بتخفّيه وحنكته وتحرُّره من قيود الوظيفة الرسمية ودوامها. وكانت روايات من هذا النوع ظهرت في عشرينيات القرن العشرين، وكان «بطلها» مجرم مهووس بالقتل، هي رواية فيليب ماكدونالد (1900 - 1980) «هرّ بأذناب كثيرة». غير أن رواية الجرائم المتسلسلة البوليسية لم تبلغ أشد الإقبال عليها إلا بعدما ظهرت في المحافل الأدبية عبارة: Serial Killer) القاتل المتسلسل)، في سبعينيات القرن العشرين، ولا سيما عند نشر رواية: (صمت الحملان) سنة 1988. وهي رواية للأمريكي توماس هاريس، وظهرت في فلم، أخرجه جوناثان ديم، ومثّل أدوار البطولة فيه جودي فوستر وأنطوني هوبكنز، ونال الفلم جوائز أوسكار. ولعل ما في عبارة «القاتل المتسلسل» من عنصر غموض ورعب، هو الذي اجتذب محبي النوع، الذين يعشقون ذلك الإحساس فيما يقرأون ويشاهدون.

روايات التشويق:

إذا كانت أنواع الروايات البوليسية تحتاج إلى كتمان سر العقدة حتى النهاية، حتى لا تضيع لذة القراءة على القارئ، (باستثناء النمط الصيني الذي يقلب مسار التحقيق، بدءاً من معرفة القاتل، وصولاً إلى وقوعه في قبضة العدالة)، فإن أشد أنواع الرواية البوليسية حاجة إلى هذا الكتمان هي روايات التشويق (Suspence). فهذا النوع يحبس نفس القارئ، بما فيه من تسلسل مفاجآت وانقلاب مواقف. ولذا يحرص النقاد على عدم كشف العقدة في مقالاتهم، فيما يحرص القارئ على عدم قراءة النقد عادة قبل قراءة الرواية نفسها. وقد صار معهوداً أن يلتزم كتم سر العقدة في الرواية المعلنون والأكاديميون في مقالاتهم، حماية لحق القارئ في شحنة التشويق التي تستحق له في قراءته. حتى أن مشاهدي فلم «شاهد ادعاء» (Witness for the Prosecution)، الذي ظهر سنة 1957، نوشدوا في الإعلان بالفيلم، ألا يبوحوا بسر العقدة، وهو مؤسس على قصة قصيرة ثم رواية «نحن المحلفين» لأغاثا كريستي، تدور أحداثها في قاعة محاكمة رجل متهم بالقتل، ولعب دور البطولة فيه تايرون باور ومارلين ديترتش وتشارلز لوتون، وأخرجه بيلي وايلدر.

حال الرواية البوليسية اليوم:

مازالت الرواية البوليسية في بريطانيا تحتفظ بأجوائها الريفية، وبالمحقق الذكي والتفسيرات المنطقية، ولعل الملمح الجديد هو الابتعاد عن وجود جريمة قتل وحضور الاختفاء.

أما الرواية البوليسية الأمريكية فقد تدهورت وأصبحت تصور الواقع الأمريكي، وابتعدت عن الرواية كفن قصصي تشويقي. ولعل الجديد في عالم الرواية البوليسية الأمريكية هو وجود جرائم الجنس التي جسدت العنف الجسدي الوحشي.

لتبقى الرواية البوليسية في العالم رواية انتصار الخير على الشر، والسلام على الحرب، والحب على الكراهية.

الرواية البوليسية في التحليل النفسي:

أما الفرنسي بيار بيّار الذي جاء إلى عالم نقد الرواية البوليسية من جانب التحليل النفسي لأنه ومن موقعه كأستاذ محاضر في الجامعات الفرنسية في الآداب وفي التحليل النفسي، أطلق نظرية (النقد البوليسي) الخاص بالرواية البوليسية، كما أطلق مفاهيم نظرية جديدة منها أن المجرم الحقيقي والرسمي في الروايات الكلاسيكية الكبيرة يخبئ في داخله هوية الضحية الحقيقية: عنوان أو مدخل مثير لعالم بيار بيّار الذي اصدر العشرات من الدراسات حول الرواية البوليسية وكان أهمها في الآونة الأخيرة: (من قتل روجيه اكرويد؟) و(بحث حول هاملت: حوار الطرشان) و(قضية كلب باسكرفيل) وغيرها من المؤلفات المثيرة للجدل.

وماذا عن الأدب:

وشهد القرن العشرون بروز أسماء كثيرة في الرواية البوليسية أو الرواية السوداء حتى أن بعض الكتاب في أنواع أدبية أخرى حسبت عليهم بعض الأعمال على أنها في إطار الرواية السوداء مثل بعض أعمال وليم فوكز مثل (الدخيل) أو غيرها...

ومع الأهمية التي أولاها النقد الأدبي للرواية البوليسية وبعدها الرواية السوداء، أخذت هذه الأخيرة تتطور على أيدي عدد كبير من الكتاب لا زالت مؤلفاتهم تملأ المكتبات في العالم حتى اليوم: من جورج سيمونون الذي أطلق الشخصية الشهيرة (المفتش ميغريه) التي انتقلت إلى الشاشة الكبيرة مع شهرة واسعة للممثل جان غابان في الخمسينيات الذي جسدها، إلى أسماء كثيرة لا زالت على الساحة اليوم: جان باتريك مانشيت وآلياس الآن فورينيه وصولاً إلى جايمس ايللروي مع روائعه: (الداليا السوداء) و(قاتل على الطريق) وغيرها من المؤلفات التي أوحت باقتباسات عديدة.

أما اليوم فتشهد الرواية البوليسية أو السوداء تحولات عديدة مع (أبطال روائيين) أكثر منهم أبطالاً في مضمون الكتب، أي أن الشهرة انتقلت من أبطال الرواية إلى المؤلفين الذين صاروا على لوائح (الرقم 1) في بلدانهم أو خارجها نذكر منهم: الكاتبة فريد فارغاس، الكاتب لورانس بلوك من أمريكا، إدواردو ماندوزا من اسبانيا، مارك فيلا من فرنسا، وغيرهم من الكتاب الذين صاروا يجسدون في كتبهم كل العنف في المجتمعات المتنوعة وكل العنف الفردي الذي يعيشه الإنسان اليوم في خضم الحروب والتطورات والاكتشافات الحديثة.

الرواية البوليسية ومشتقاتها على الشاشتين:

شكَّلت الرواية البوليسية جزءاً أساسياً من نسيج صناعة السينما ولاحقاً التلفزيون، بحيث يمكن القول إن الأفلام البوليسية تحتل المرتبة الثانية بعد الأفلام العاطفية في تاريخ السينما، وتتقدم من ناحية الكم على الأفلام التاريخية والكوميدية والسياسية، بحيث يستحيل تقديم كشف كامل بها. إذ لم تترك السينما لوناً من الألوان البوليسية إلا وصورته. فإضافة إلى الأفلام التي ورد ذكرها سابقاً، والتي أصبحت من كلاسيكيات السينما، اشتق الفن السابع ألواناً من هذا الفن خاصة به، راجت وتروج بفعل «سينمائيتها»، أي من كون قيمتها الفنية نابعة أساساً من تصويرها وليس من النص المكتوب.

فبموازاة الأفلام البوليسية الكلاسيكية، ظهر نوع من الأفلام يقوم أساساً على الحركة (Action)، حيث المجرم معروف منذ البداية، يطارده شرطي أو جندي سابق خدم في الوحدات الخاصة.. أما مسار الفلم فهو صراع ما بين الطرفين ومطاردة ومواجهة شرسة تنتهي غالباً بمقتل المجرم بشكل عنيف، وليس بوضعه وراء القضبان كما في الروايات الإنجليزية الكلاسيكية. وهناك ممثلون يدينون بشهرتهم العالمية لهذا النوع من الأفلام مثل أرنولد شوارزينغر، وجان كلود فان دام، وبروس ويليس وغيرهم.

أما النوع الثاني الذي اشتقته السينما من الأفلام البوليسية، فهو بعض ما يندرج تحت أفلام الرعب مثل سلسلة أفلام (هالوين) التي أخرجها السوري مصطفى العقاد، وسلسلة أفلام (صراخ) وغيرها.. وفي هذا النوع من الأفلام، فإن المحقق يكاد أن يكون غائباً تماماً، إذ تدور القصص حول الشكل الذي تقع فيه الجريمة، وهو عادة شكل قبيح، يثير في المشاهد مشاعر الشفقة على الضحية والنقمة على غبائها.. ويمكن في أحيان أن تتحقق العدالة في النهاية على يد ضحية محتملة في غياب شبه كلي للمحقق ولرجال الشرطة الذين لا يظهرون إلا في نهاية الفلم.

وبسبب ضخامة تكاليف إنتاج الأفلام البوليسية الكبرى وأفلام الحركة، فإنها تنتج للسينما أولاً، ثم تعرض بعد فترة على شاشات التلفزيون. ولكن بسبب انفتاح الأدب البوليسي على أنماط متعددة داخل اللون الأساسي الواحد، وجدنا التلفزيون ينتج أفلاماً ومسلسلات بوليسية خاصة به، لا تقل قدرة عن الأفلام السينمائية على جذب المشاهد، وذات تكلفة مادية أقل بكثير. فمقابل الأفلام القليلة التي صورتها السينما من روايات أغاثا كريستي، نجد التلفزيون الإنجليزي يعرض بشكل شبه متواصل مسلسلات مقتبسة عن روايات المؤلفة نفسها، لأن عقدتها ومادتها تعتمد أولاً على ذكاء المحقق وليس على مشاهد تحطيم السيارات وتدمير الأبنية وتفجيرها.

واليوم، تعرض الفضائيات العربية مجموعة ضخمة من المسلسلات البوليسية، منها على سبيل المثال (C.S.I Miami) الذي يدور حول أداء فريق خاص بالتحقيق في موقع الجريمة. والنجاح الذي لقيه هذا المسلسل دفع إلى إنتاج (C.S.I) خاص بأكثر من مدينة أمريكية مثل نيويورك ولوس أنجلس.. وهذه المسلسلات التي تتضمن معظم أساسيات القصص البوليسية، وتضيف إليها الاعتماد على التكنولوجيا المتطورة، لا تخلو من التفنن ببعض القيم الاجتماعية مثل أهمية العمل ضمن فريق، والتفاؤل بحتمية ظهور الحقيقة وإحقاق العدل والخضوع للقانون، حتى ولو تمكن المجرم من لي ذراع القانون لصالحه.

وأخيراً وليس آخراً، هناك مسلسل (عقلية إجرامية) الذي يلاقي نجاحاً عالمياً منذ بضع سنوات، وأبطاله هم فريق خاص في مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي، يعمل على اكتشاف المجرمين بناءً على تحليل سلوكهم ونفسياتهم. ويقوم هذا المسلسل بالفعل على آخر ما توصل إليه علم النفس وعلم الجريمة، إضافة إلى بعض «الإكسسوارات» التقنية.

واضعو أسس (الرواية السوداء) أو الرواية البوليسية

ادغار آلن بو والرواية البوليسية (19 كانون الثاني/يناير 1809 – تشرين الأول/أكتوبر 1849):

انطلاقة الرواية السوداء مع مؤسسها الكاتب الأمريكي ادغار آلن بو لها وقعها في هذا الملف، أولاً لأنه الرائد الذي لم يعرف تماماً انه بمجرد نشره لثلاثيته القصصية حول (دوبان) في العام 1840 أرسى الرواية عند مفترق مهم ومثير ووضع الأسس لنوع أدبي جديد صار اسمه (الرواية البوليسية).

(قضية في شارع مورغ) تبعها (لغز ماري روجيه) من سلسلة التحري دوبان العبقري القادر على كشف الألغاز وحلّها بذكاء خارق، غير أن الموضوع لم ينل إعجاب القراء الذين كانوا في تلك المرحلة يفضلون الغوص في عالم شارلز ديكنز أو بلزاك مثلاً خاصة أن آلن بو جعل رواياته مبنية على خليط من الواقع والمتخيل وأنه وصف الجرائم بأدق تفاصيلها المخيفة والمرعبة أو المقززة، الأمر الذي تحاشاه من سبقه وهو وصف بدقة الجرائم والجثث وأعمال التحري والشرطة ولكن تخوف آلن بو من فجاجة هذه الثلاثية جعله يقتنع بضرورة تخفيف حدتها بان يدير أحداثها نحو منعطفات ساخرة كأن يعترف مثلاً في إحدى الروايات أن بطله الذي يقوم بالقتل هو أساساً كائن حيواني وبالتالي غير مسؤول عن تصرفاته، وكأنه في كل هذا كان يبرر أحداث الروايات السوداء أو البوليسية حيث الجرائم التي وصفها وقصّت مضاجع قرائه لم تصبح منقولة إلا لأنه أنكر وجودها بشكل آخر وفي نفس الرواية.

وقد أشار كبار النقاد إلى أنه كان «المعلم الأول للكتابات الفانتازية» و«مخترع القصة البوليسية»، و«الممهد الأول للرواية العلمية» و«المجدد للقصة الشعبية» و«الرائد في علم التحليل النفسي»... وعدد كبير من الدراسات الأخيرة، جاءت فيها إشارات إلى إن حياة بو لم تكن على هذا القدر من الإهمال في إدمانه وتسكعه وأن سمعته قد لطختها بعض الأقلام الحاقدة والغيورة من عبقريته المفرطة، وأنه أيضاً لم يكن في وسع النقاد منذ مئتي عام شرح غرائبية كتاباته سوى بربطها بإدمانه وبابتعاده عن الأخلاقيات السائدة في ذلك العصر. وفي كل هذا يبقى سؤال حول اللعنة التي رافقت حياة ادغار آلان بو، فهل هي حقاً كانت لعنة الواقع الحزين من حوله، أم كانت لعنة عبقريته الفذة الثقيلة على حياة انكسرت على 40 عاماً.

كونان دويل وشارلوك هولمز (22 أيار/مايو 1859 - 7 تموز/يوليو 1930):

آرثر كونان دويل الذي يُعد، مع أغاثا كريستي أشهر من كتب في الرواية البوليسية على الإطلاق. فهو الذي ابتكر شخصية (شارلوك هولمز) سنة 1887، أشهر محقق جنائي في أدب الرواية البوليسية. قال كونان دويل إن بطله هولمز، مستوحى من شخصية دكتور جوزف بل، الذي عمل معه دويل في مستوصف إدنبرة الملكي. فقد كان بل، مثل هولمز، يُحسن استنتاج الكثير من أدق تفصيل.

أما شارلوك هولمز بطل روايات كونان دويل، فهو محقق لندني فذ، يمتلك ثقافة فكرية جبّارة، ومقدرة فائقة على الاستفادة من أدق تفصيل لاستنتاج الحقائق، وخبرة ممتازة في شأن الأدلة الجنائية تمكّنه من حل أعقد الألغاز الإجرامية. وكتب كونان دويل أربع روايات و56 قصة قصيرة بطلها شرلوك هولمز.

والشاشة الصغيرة في بريطانيا كرمت شخصية هولمز عبر اقتباسات كثيرة كان آخرها العام 1994 مع سلسلة (شرلوك هولمز) الجديدة، أما في السينما فهو أوحى الكثير للمخرجين، أبرزهم فيلم (كلب باسكر فيل) لسيدني لانفيلد عام 1939 وهولمز تارنس فيشر عام 1959 و(شرلوك هولمز والجيش السري) عام 1943 إلى أن تجرأ على اقحام الشخصية الروائية مع النازيين... أما الأفلام الكلاسيكية للشخصية فكانت مع فيلم (الحياة الخاصة لشرلوك هولمز) لبيللي ويلدر (عام 1970) والفيلم المنتظر حالياً حول الشخصية للعام 2010 مع روبرت دواني حيث سيشارك في البطولة الممثل جود لوو.

موريس لوبلان والمفتش لوبان (11 كانون الأول/ ديسمبر 1864 - 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1941):

من فرنسا موريس لوبلان و(أرسين لوبان) وغاستون لوروو وبيار بيّار.. أما الفرنسي موريس لوبلان فقد أمضى مرحلة طويلة من حياته في العمل الصحافي قبل أن يصبح (أب) الشخصية الساحرة التي ستدعى (أرسين لوبان). وهو لم ينكر تأثره الكبير بكل الذين سبقوه في (رواية التشويق) أو (رواية الألغاز) أو بكل بساطة الرواية المثيرة التي تقوم على أحداث (غير عادية) تستدعي شخصية (مميزة وغير عادية أيضاً) لتحدي هذه الأحداث أو لتغطيها. واشتهرت شخصية (أرسين لوبان) في الكتاب الشهير لموريس لوبلان (المغامرات الخارقة أرسين لوبان) حتى صار هذا الأخير مثالاً يُحتذى به حتى صار مضرب مثل يقال: «هذا ذكي أو داهية مثل أرسين لوبان»، ومن الكتاب انتقل هذا البطل إلى السينما والتلفزيون والشرائط المصورة..

كان لوبلان قد كتب رواية (أزواج) 1891 ، وكذلك رواية (امرأة) 1893 حظيتا بإعجاب بعض أفراد الوسط الأدبي ولكنهما لم تلقيا نجاحاً لدى جمهور القراء.

عرض عليه بيير لافيت وهو رئيس تحرير واحدة من أكثر المجلات شعبية في فرنسا في ذلك الزمن «أنا أعرف كل شيء» أن يكتب عملاً يمكن أن ينافس ولو قليلاً أعمال الكاتب البوليسي الإنكليزي آرثر كونان دويل وبطله الشهير شرلوك هولمز، فكتب قصة (اعتقال أرسين لوبان)، التي حملت الخصائص الأساسية لشخصية أرسين لوبان التي صارت شخصية دائمة في رواياته. ولوبان لص حاذق وأنيق، مدافع عن العدالة والمظلومين، متعدد الوجوه، يتنقل بين هذه الوجوه بمهارة ويسر. فهو تارة حوذي وتارة مغني أوبرا، مرة طبيب روسي، ومرة أخرى مصارع ثيران إسباني. وقد حققت هذه القصة بفضل شخصيتها المحورية نجاحاً كبيراً لدى القرّاء مما جعل لوبلان ينذر نفسه طوال ما تبقى من حياته لكتابة نحو عشرين رواية حولها لاقت شهرة عالمية وترجمت إلى معظم لغات العالم. من هذه الروايات: (أرسين لوبان، اللص الظريف) 1907 (أرسين لوبان ضد شرلوك هولمز) 1908 (الحدود) 1911، (المثلث الذهبي) 1918، (الدائرة الحمراء) 1922، وقد تحول معظم هذه الروايات إلى أفلام سينمائية.

غاستون لورو والمفتش رولتابيل (6 أيار/مايو 1868 - 15 نيسان/أبريل 1927):

كذلك اشتهرت في فرنسا وإن بدرجة أقل من سابقتها، شخصية (رولتابيل) للفرنسي غاستون لوروو في مؤلفات عديدة كان أبرزها: (انجازات رولتابيل) أو (لغز الغرفة الصفراء) وغيرها من المؤلفات التي كتبها لور بعد أن اعتزل المحاماة وبدأ في صحيفة قضائية ومنها إلى صحيفة (لوماتان) حيث عمل منذ العام 1894 إلى 1906، وبحكم أسفاره للتحقيقات الصحافية إضافة إلى حسه القضائي واهتمامه بأدق التفاصيل في كل قضية يلاحقها، رسم شخصيته الشهيرة للمفتش جوزف رولتابيل الذي يشبهه كثيراً ومن مؤلفاته تلك التي أغنت الرواية البوليسية بحس قانوني وقضائي مميز: (منزل القضاة) و(رولتابيل عند القيصر) (احتضار روسيا البيضاء)..

ويعد في الأدب الفرنسي بموازاة إدغار آلان بو الأمريكي وآرثر كونان دويل الإنكليزي. واشتهر بروايته شبح الأوبرا التي نشرت عام 1910.

في عام 1907، اتجه إلى كتابة الروايات، ومن أشهر رواياته (أشهرها لغز الغرفة الصفراء). من حاول قتل الآنسة ستانفرسن؟ وكيف تمكن المجرم من الخروج من الغرفة الصفراء التي لا منفذ منها؟ على المفتش رولتابيل أن يفك هذا اللغز الذي يبدو مستعصياً.

أغاثا كريستي في بريطانيا (15 أيلول/سبتمبر 1890 - 12 كانون الثاني/يناير 1976):

تربعت أغاثا كريستي على عرش الرواية البوليسية الإنكليزية طوال نصف قرن دون مزاحمة، ولعل دراسة الناقدة البريطانية (جوليان سيمونز) عن أدب الجريمة وتقنيات الرواية البوليسية التي صدرت بعدة طبعات منذ عام 1985، لعلّ تلك الدراسة تمنح أغاثا كريستي المكانة التي حققتها في ميدان أدب الجريمة على صعيد عالمي، وقارئ كريستي بالإنكليزية يلحظ دون أدنى شك أنها استخدمت لغة وسطى سلسة وسياله، أنها لم تكتب بلغة (شكسبيرية) عالية رغم أنها ارتقت بأعمالها عن مستوى الإنجليزية المتداولة أعني لغة المحادثة اليومية ولعل هذا يفسر رواج قصصها ورواياتها لدى الأوساط الشعبية في بريطانيا وأوروبا وما وراء البحار، كما يفسر سهولة ترجمتها إلى مختلف لغات العالم.

ومع أن الشخصيات الشهيرة في الروايات البوليسية البريطانية كان لها وقعها في الأدب والسينما غير أن كتابها ومخترعيها هم الذين حصدوا اهتمام النقاد وثمة تفصيل دقيق هو أن معظم هؤلاء الكتاب هم نساء وقد أطلق عليهن لقب (أميرات الجريمة البريطانية) ومع أن رجالاً كتبوا في هذا المضمار وأبدعوا في انكلترا واشتهرت شخصياتهم مثل بايكر ستريت وشرلوك هولمز ودكتور واتسن وهركول بوارو لكن أميرات الجريمة لفتن أنظار العالم بإبداعاتهن في هذا المجال من أغاثا كريستي إلى ب د. جايمس وصولاً إلى آن بيري..

وإذا كانت الرواية البوليسية في بريطانيا قد انطلقت عام 1860 ويلكي كولينز في (المرأة بالأبيض) أو (حجارة قمر) فان رواية (لغز السيدة اودلي) للمؤلفة ماري اليزابيت برادون نالت شهرة لا توصف منذ صدورها وحولت الأنظار إلى قدرة رهيبة لدى تلك المرأة في إدارة أحداث بوليسية كانت لا تزال حكراً على الرجال. غير أن برادون كما كل اللواتي كتبن بعدها مثل مسز هنري وود في رواياتها (ايست لين)، فقد قدمن شخصيات نسائية تصل إلى الجريمة غير أن عقابها مرسوم لها في الرواية عينها لأن المجتمع قد رفض آنذاك صورة المرأة المجرمة أو المرأة المدبرة للمكائد التي ضربت صور المرأة الزوجة أو المرأة الأم.

وقد شهد رافد الرعب تطوراً كبيراً بظهور رواية (دراكولا) لبرام ستوكر. وظهر تأثر البريطانيين بالشرق في رواية (دماء فو مان شو) لساكس رومر؛ حيث يواجه عبقري الشر الصيني القيم البريطانية الغربية.

غير أن أغاثا كريستي وصلت مع رواياتها في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين لترسم بجرأة شخصياتها من رجال ونساء بعيداً عن كل محظور أو ممنوع، وبسرعة فائقة حجبت أعمال كريستي كل أعمال النساء الأخريات اللواتي عاصرنها مثل مارغري آلينغهام او دوروتي ل سايرز او جوزفين تاي. وبعد كريستي، استمرت الرواية البوليسية مع مواهب كثيرة مثل روت رندل التي حولت هذا النوع الأدبي أكثر نحو البحث السيكولوجي وأيضاً مع موجة حداثية منها مثلا كايت سامر سكال التي كتبت (قضية رود هيل هاوس) عام 2008 الكتاب الذي نال شهرة كبيرة وهو مأخوذ عن قصة حقيقية أخذت منها أيضاً ويلكي كولينز لتكتب (حجارة قمر).

وتعد روايتها (جريمة قتل روجر أكروويد)، التي تعد اليوم من كلاسيكيات الأدب البوليسي. في عام وفي عام 1938 ولدت شخصيتها المعروفة الأخرى (مس ماربل) التي تقاسمت و(إركول بوارو) بطولة رواياتها، وذلك في (جريمة قتل في الأبرشية).

وبعد وفاتها بعام نشرت مذكراتها، وخلّفت ما يقارب مئة كتاب. وحسب معطيات منظمة اليونسكو فإن عدد النسخ التي بيعت من مؤلفاتها بين عامي1920 و1980 بلغ 400 مليون نسخة، وقد ترجمت كتبها إلى ما يزيد على مئة لغة.

وشاندلر وهامت في أمريكا:

في أمريكا: من الرواية البوليسية إلى الرواية السوداء: شاندلر وهامت..

تاريخياً، بدأت بذور الرواية السوداء في أمريكا حين بدأ داشيل هامت بنشر قصصه القصيرة الأولى عام 1923 في مجلة (بلاك ماسك) وخاصة بعد أن نشر روايته الأولى (الحصاد الأحمر) عام 1929، حيث جعل الرواية البوليسية تنخرط أكثر فأكثر من مجتمعها الحاضر، ولم يعد همه ككاتب أن يكشف عن المجرم في جريمة معينة يصفها في كتابه مثلاً، بل راح يدرس أسباب الجريمة ومحيطها وأثرها على المجتمع وبذلك صور مجتمعه في صورة قاتمة سوداء حتى صارت (الرواية السوداء) هي الصورة الحقيقية للمجتمع الحديث والمعاصر.

والرواية البوليسية من الأدب الأمريكي حيث ظهرت شخصية المخبر الخاص شبه المنبوذة، وهي التي تقوم بأعمال خاصة ومغامرات تدور على خلفية قيم معينة، وتمثل هذا في روايات داشيل هامت (الصقر المالطي) وروايات فيليب مارلو وميكي سبيلن. وتضافرت مع ظهور فن السينما الذي تبناها وصنع منها في البداية (الأفلام السوداء).

أما التغيير الذي أتى به الأمريكي ريمون شاندلر فقد كان واضحاً مع بطله فيليب مارلو في مغامرات روايات بلغت السبع حيث يلاحق مارلو قضاياه في مجتمع بأسلوب مغاير، وقد وضع شاندلر في بطله كل المقومات البطولية التي آمن بها: فهو جعل مارلو يتفرد بقراراته ولا يلتزم تعليمات الشرطة من حوله ومن عالمه ومعتقداته الخاصة، كان يحل كل المشاكل التي تعترضه: وبالتالي فشخصية فيليب مارلو هي صورة عن شاندلر بحسه الساخر تجاه المجتمع والسلطة والشرطة، وبإيمانه بمثالية إنسانية معينة هي على صورة القرن العشرين، «المثالية مع قبضة حديدية نلكم بها كل من يعترضنا وبعض السلاح إذا دعت الحاجة».

بهذا اختصر شاندلر بطله العصري الذي لم يعد مجرد شرطي أو مجرد مفتش، بل هو على صورة الرجل المثالي الذي يسعى إلى تحقيق السعادة من حوله وعلى طريقته المثالية.. كتب هامت وشاندلر وغيرهما من كتاب المرحلة بدأت تصدر في كل دول العالم وبكل اللغات حتى غزت الرواية السوداء العالم. ومن أبرز من اهتم بنشرها الفرنسي مارسيل دوهاميل الذي أطلق (السلسلة السوداء) في داره الفرنسية للنشر أو (سيري نوار) التي عرفت كل العناوين والأسماء ولا زالت متربعة على لائحة الدور الأولى في العالم.

لمشاهدة تقرير عن الروائي جوسي أدلر أولسن إضغط هنا

ولمشاهدة تقرير على الرواية البوليسية في روسيا إضغط هنا